للسياسيين فى هذا الشرق عملا أفضل ولا أقوى ولا أردّ بالفائدة من إحياء الحماسة فى كل شعب شرق ، ثم حياطتها وحسن توجيهها ؛ فهذه الحماسة الشعبية الدائمة القوية البصيرة هى قوة الرفض لما يجب أن يرفض ، وقوة التأييد لما يجب أن يُقبل وهى تعد ذلك وسيلة جمع الأمر وإحكام الشأن وإقرار العزيمة فى الأخلاق وتربية الثقة بالنفس ، وبها يكون إذكاء الحس وتعويده إدراكَ الأعمال العظيمة والتحمس لها والبذل فيها

وما علة العلل فينا إلا ضعف الحماسة الشعبية فى الشرق وسوء تدبيرها وقبح سياستها ، وإنا لنأخذ عن الأوربيين من نظامهم وأساليبهم وسياستهم وعلومهم وفنونهم فنأخذ كل ذلك بروحنا الفاترة فى خمول وإهمال وتواكل وتفرُّد بالمصلحة واستبداد بالرأى ، فإذا دينارهم فى أيدينا درهم ، وإذا نحن وإياهم فى الشىء الواحد كالنحلة والذبابة على زهرة

ليست لنا حماسةُ الحياة وبهذا تختلف أعمالُنا وأعمالهم ، وذلك هو السر أيضاً فى أن أكثر حماستنا كلامية محضة إذ يكون الصراخ والصياح والتشدُّق ونحوها من هذه المظاهر الفارغة — تنفيساً للطبيعة الساكنة فينا وتنويماً منها بغير أن نجهدَ فى التنفيس والتنويم . ومن هذا كانت لنا أنواع من الكلام ينطلق اللسان فيها للخروج من الصمت لا غير .... ومنه كثير من هذا الهراء السياسى الذى يدور فى المجالس والأحزاب والصحف

إن حماسة الشعب لا تكون على أعدائه فقط بل على معايبه أيضاً وعلى ضعفه بحماسة . والشعب الفاتر فى حماسته لو نال حقين مغصوبين لعاد بخسر أحدهما أو كليهما ؛ أما الشعبُ المتحمسُ القويُّ فى حماسته ، فلو غُصِبَ حقين ونال أحدهما لعاد فانتزّ الآخر .

لطفى

إلى المؤلف الصغير : وصلت رسالتك يا بنى وأرى لك أن تنتظر عشرين سنة ثم تؤلفها مرة أخرى ....

الرافعى

نظرية النبوة عند الفارابى

للدكتور ابراهيم بيومى مدكور

— ٢ —

أثيرت مشكلة الوحى فى العالم العربى منذ بدأ النبى صلى الله عليه وسلم دعوته . فكفار قريش ما كانوا يريدون أن يقبلوا أن محمد بن عبد الله يَنْزل عليه وحى سماوى ، وكثيرا ما رددوا جملتهم التهكمية المشهورة : هذا ابن أبى كبشة يُكلَّم من السماء . واستبعدوا عليه كل البعد أن يتصل بالعالم الالهى وهو بشر مثلهم يأكل ويشرب ويتردد الى الحوانيت والأسواق : « وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ، ويمشى فى الأسواق ؛ لولا أنزل عليه ملك فيكون معه نذيرا ، أو يلقى اليه كنز ، أو تكون له جنة يأكل منها » بيد أن معجزاته بهرتهم وفصاحته أفحمتهم وهم أهل القول واللسن ، وزعماء البلاغة والبيان . فأخذوا يتهمونه تارة بالسحر والشعوذة ، وأخرى بالكهانة والتنجيم ؛ وعزوا اليه قوى خفية لا حصر لها . ولم يكن له من جواب على هذه الدعاوى الباطلة والاتهامات القاسية إلا أن يقول : « ما أنا إلا بشر مثلكم يوحى إلى » . فهو لا يجىء بشىء من عنده ، ولا يفترى عليهم الكذب ، وإنما يبلغ رسالة الله : « يا أيها الرسول بلغ ما أنزل اليك من ربك ، وإن لم تفعل فما بلغت رسالته ، والله يعصمك من الناس ، إن الله لا يهدى القوم الكافرين » . ونظرية الاسلام فى الوحى وطرائقه سهلة واضحة . فهناك ملك خاص هو جبريل عليه السلام ، قادر على التشكل بأشكال مختلفة شأن الملائكة الآخرين ؛ وكل وظيفته تتلخص فى أنه واسطة بين الله وانبيائه . وعنه تلقى محمد صلى الله عليه وسلم كل الأوامر الدينية ، اللهم إلا فى ليلة المعراج فقد اتصل بربه مباشرة واستمع ما فُرض عليه وعلى أمته . ويجب أن نشير كذلك الى أن الأحلام وسيلة من وسائل الكشف والالهام ، فان النفوس الطاهرة تصعد أثناء النوم الى عالم الملكوت ، حيث تقف على الأمور الخفية والحقائق الغامضة . وقد رأى النبى صلى الله عليه وسلم قبل أن يبدأ دعوته أحلاما آذنت بمهمته ، وكانت ارهاصا لنبوته

وبشيرا برسالته : والرؤيا الصادقة جزء من أربعين جزءاً من أجزاء النبوة . وفى القرآن الكريم سورة كاملة تشرح الأحلام وأثرها فى التنبؤ بالغيب ، وتعنى بها سورة يوسف

لم يتردد رجال الاسلام فى الصدر الأول مطلقا فى التسليم بهذه الوسائل الخاصة بالوحى والالهام . ولم يحاول واحد منهم أن يسأل عن النبوة فى سرها وأسامها ، ولا عن المعجزات فى عللها وأسبابها . وآمنوا إيمانا صادقا بكل ما جاء من عند الله دون بحث أو تعليل . وقد عنوا منذ الفجر الأول للاسلام بالرؤيا وتعبيرها ووضعوا فى ذلك أبحاثا مستقلة لم تلبث أن كونت علما خاصا . وإنا لنجد بين التابعين تلك الشخصية الجليلة المعروفة بين رواة الحديث ، وهى شخصية ابن سيرين التى كانت تعد حجة فى تأويل الأحلام وتفسيرها . وعلّ هذا فى الغالب هو السر فى أن المتأخرين نسبوا اليها فى هذا الباب كتباً ليست من صنعها [1]

بيد أن هذا التسليم الهادىء لم يطل أمده ، وهذا الاذعان الفطرى لم يبق فى مأمن من الشكوك والأوهام . فقد اختلط المسلمون بعناصر أجنبية مختلفة نفثت فيهم كثيرا من سمومها ، ولم ترع أصلا من أصول دينهم إلا وضعته موضع النقد والتشكيك والتضليل . ولا غرو فقد كانت هذه العناصر موتورة من الدين الذى ألغى أديانها ومن الحضارة الجديدة التى سلبتها مجدها وعزها . لهذا تألبت فى كل جموعها ، وأخذت تحارب الاسلام بشتى الوسائل لتثأر لنفسها ودينها وتسترد نفوذها وسلطانها ، ولكنها عبثا حاولت وباءت بالخيبة والفشل : « انا نحن نزّلنا الذكر وإنا له لحافظون » . فالزدكية والمانوية من الفرس ، وأنصارهم من زنادقة العرب ، بدأوا فى القرن الثانى للهجرة ينشرون دعوة الثنية ويهدمون فكرة التوحيد التى قام عليها الأسلام . وكلنا يعلم خبر بشار بن برد وصالح بن عبدالقدوس الثنويين اللذين كانت لهما مجالس خاصة تذاع فيها الآراء المزدكية والمانوية [2] السُّمنيّة وغيرهم من براهمة الهند أخذوا فى ذلك العهد نفسه ينادون بتناسخ الأرواح ، وينكرون النبوة والأنبياء ، ولا يرون حاجة البشر اليهم . وصاحب الأغانى يقص علينا حديث جرير بن حازم الأزدى السمنى وما كان بينه وبين عمر بن عبيد فى البصرة

(١) Encyc. de l'Islam, II, 449

(٢) أحمد أمين ، ضحى الاسلام ، ج ١ ، ص ١٥٧

من حوار ونقاش [1] . وملأ اليهود كتب الحديث والتفسير بامرائيلياتهم ، وقالوا بالرجعة والتشبيه وخلق القرآن كما قالوا بخلق التوراة من قبل [2] . وأرسل آباء الكنيسة على المسلمين شواظا من أسئلتهم واعتراضاتهم المتعلقة بمشكلة الجبر والاختيار فزادوها تعقيدا ، وشغلوا الناس بها فوق عرفهم ومألوفهم ، وذهبوا الى إنكار أبدية عذاب النار فقال الجهم بن صفوان معهم إن الجنة والنار يفنيان ويفنى أهلهما [3] واجترأ الدهرية على أن ينكروا البارىء جل شأنه والعقاب والمسؤولية ، وقالوا إن هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر

وقد سل المعتزلة وغيرهم من مفكرى الاسلام لهؤلاء وهؤلاء سيف الحجة والبرهان وجادلوهم جدالا قد لا نجد له نظيرا فى تاريخ الأديان الأخرى . فأبى واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد بلاء حسناً فى معارضة بشار بن برد وصالح بن عبد القدوس . وناظر أبو الهذيل العلاف الثنوية فى البصرة وهدى بعضهم الى الاسلام . وكان للنظام ، وهو أحذق الجدليين فى الشرق ، قدم صادقة فى مناقشة الزنادقة والدهرية والديصانية . ثم جاء من بعده تلميذه الجاحظ فسار على سنته ، وبذل فى هذا النضال همة طائلة ومهارة فائقة ، واستعان عليه باطلاعه الواسع واسلوبه العذب وقلمه السيال [4] . وفى كتاب الانتصار لأبى الحسين الخياط المعتزلى الذى طبع فى مصر أخيرا تفاصيل كثيرة عن هذه الملاحم الكلامية والمعارك الجدلية . وكثر الحوار بين المسلمين والنصارى من جانب وبين المسلمين واليهود من جانب آخر . وأخذت طائفة من الاسماعيلية على عاتقها رد شبه مفكرى النبوة والأنبياء ومعجزاتهم . وفى اختصار كان القرنان الثالث والرابع للهجرة — أو التاسع والعاشر للميلاد — ميدانا فسيحا لجدال عنيف شمل معظم أصول الاسلام ومبادئه

وليس هناك شك فى أن التسليم بالوحى والمعجزة ألزم هذه الأصول وأوجبها ؛ فان منكرى النبوة ينقضون الدين من أساسه ويهدمون الحضارة الاسلامية كلها . وعلى الرغم مما فى هذه

(١) الأغانى ، ج ٣ ص ٢٤

(٢) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٣٦٧ — الشهرستانى ، الملل ، ج ١ ص ٨٥ — ٨٦

(٣) ابن حزم ، الفصل ، ج ٤ ، ص ٨٣

(٤) نيبرج ، الانتصار ، مقدمة ، ص ٥٤ — ٥٨

الدعوى من جرأة وفى هذا الموقف من تهجم ، فانا نجد بين المسلمين من وقفوه . ودون أن نعرض لكل من خاضوا غمار هذا الموضوع فى القرنين الثالث والرابع للهجرة نشير الى رجلين : هما أحمد بن اسحق الراوندى ومحمد بن زكريا الرازى الطبيب . فأما الأول فشخصية غريبة للغاية ، ولا يعرف بالدقة تاريخ مولده ولا وفاته ، ويغلب على الظن أنه مات فى أخريات القرن الثالث . وهو من أصل يهودى نشأ فى راوند قرب اصبهان ، ثم سكن بغداد واتصل بالمعتزلة ، وكان من حذاقهم ، وعده المرتضى بين طبقتهم الثامنة [١] . إلا أنه لم يلبث أن خرج عليهم لأسباب لم يجلّها التاريخ بعد ، وحمل عليهم ، بل وعلى الاسلام وتعاليمه المختلفة ، حملة عنيفة . ولازم الملحدين واتصل بهم اتصالاً وثيقاً . ويظهر أنه أضحى دسيسة ضد المسلمين يدبر لهم المكائد ويُستأجر للطعن عليهم وينشر فيهم عناصر الزيغ والالحاد . ولم يخف أمره على بعض اليهود المخلصين الذين حذروا المسلمين منه وقالوا لهم : ليفسدن عليكم هذا كتابكم كما أفسد أبوه التوراة علينا [٢] .

وقد كتب كتباً كثيرة كلها انتقاص للاسلام ورجاله ؛ منها كتاب فضيحة المعتزلة فى الرد على كتاب فضيلة المعتزلة ، الذى وضعه الجاحظ من قبل ، وكتاب الدامغ يعارض به القرآن ، وكتاب الفريد فى الطعن على النبى صلى الله عليه وسلم ، وكتاب الزمردة فى انكار الرسل وابطال رسالتهم [٣] . والكتاب الأخير يعنينا بوجه خاص فانه يعطينا فكرة عن مسألة النبوة ، وكيف كانت تثار فى ذلك العهد . وقد بقى هذا الكتاب مجهولا الى زمن قريب ؛ ويرجع الفضل فى التعريف عنه الى صديقنا المسيو كراوس الذى اهتدى اليه فى مخطوطة من المخطوطات الاسماعيلية الموجودة فى الهند ، وهذه المخطوطة ليست إلا جزءاً من المجالس المؤيدية المنسوبة الى المؤيد فى الدين هبة الله بن أبى عمران الشيرازى داعى الدعاة الاسماعيلى أيام الخليفة الفاطمى المستنصر بالله [٤] وتشتمل المجالس المؤيدية فى جملتها على ٨٠٠ محاضرة ألقيت فى « دار العلم » بالقاهرة فى منتصف القرن الخامس الهجرى ، ودرست فيها المشاكل الاسلامية على اختلافها [١] . وفى المجلس السابع عشر من المائة الخامسة الى المجلس الثانى والعشرين يعرض المحاضر لأقوال الراوندى فى الطعن على النبوة ويعقب عليها بالنقض والرد . وهذه المجالس الستة هى التى نشرها المسيو كراوس وترجمها الى الألمانية وعلق عليها تعليقاً ضافياً يدل على اطلاعه الواسع وبحثه العميق فى مجلة الرفستا الايطالية سنة ١٩٣٤ [٢] . فهى لا تحوى كتاب الزمردة فى مجموعه ، بل فقرات منه تولى الاسماعيلية مناقشتها وإظهار ما فيها من خطأ ومغالطة . وقد صيغت هذه المناقشة فى قالب مشوق جذاب ، وإن تكن مسجعة سجعاً ثقيلاً أحيانا . وفيها دفاع وردود عقلية هى أثر من آثار الثقافة الاسماعيلية المترامية الأطراف . ولا يتسع المقام لعرض هذه المناقشة فى تفصيلها ؛ وسنكتفى بأن نستخلص دعاوى ابن الراوندى واعتراضاته

قد يكون أول شىء يلحظه المطلع على هذا الحوار هو ما فى ابن الراوندى من حذق ومهارة ومكر ودهاء . يقف موقفاً بعيداً عن التحيز — ولو فى الظاهر على الأقل — كى يجتذب اليه كل القراء ، فهو لا يتعرض للنبوة بالنفى والانكار فقط ، بل يناقش موضوعها مناقشة حرة طليقة يأتى فيها على أقوال المثبتين والمنكرين . وكم نأسف لأن صاحب المجالس المؤيدية أهمل جانب الاثبات فى هذه القضية . [٣] . ولو وافانا به لاستطعنا أن نحكم فى وضوح ما إذا كان واضع كتاب الزمردة يكيل بكيلين . على أن هناك ظاهرة أخرى تؤيد أن ابن الراوندى يمعن فى الدهاء والمكر ؛ فهو يعلن فى أول بحثه أنه لا يعمل شيئا سوى أنه يردد أقوالا جرت على ألسنة البراهمة ، فى رد النبوات [٤] . وسواء أكانت هذه الأقوال من آثار الفكر الهندى أم من اختراع ابن الراوندى فهى تتلخص فيما يلى : إنكار للنبوات عامة ونبوة محمد صلى الله عليه وسلم خاصة ، نقد لبعض تعاليم الاسلام وعباداته ، ثم رفض فى شىء من التهكم للمعجزات فى جملتها . فأما الرسل فلا حاجة إليهم لأن الله قد منح خلقه عقولاً يميزون بها

(١) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، جـ ١ ، ص ٣٨ — ٣٩ — المرتضى : المنية والأمل ، ص ٥٣

(٢) معاهد التنصيص ، جـ ١ ، ص ٧٦ — ٧٧

(٣) نيبرج ، الانتصار ، ص ٣٢ — ٣٧

(٤) P. Kraus, Beiträge zur isla mischen Ketzergeschichte, in Rivista (1934), p. 94

(١) Hamdani, The Hist. of the Is mâ'îli Da'wat, p p. 126—139.

(٢) Kraus, Rivista, 96—109,110—120

(٣) Ibid. p. 96

(٤) Ibid.

الخير من الشر ويفصلون الحق عن الباطل ، وفى هدى العقل ما يغنى عن كل رسالة . يقول ابن الراوندى : « إن البراهمة يقولون إنه قد ثبت عندنا وعند خصومنا أن العقل أعظم نعم الله سبحانه على خلقه ، وأنه هو الذى يُعرف به الرب ونعمه ، ومن أجله صح الأمر والنهى والترغيب والترهيب . فان كان الرسول يأتى مؤكداً لما فيه من التحسين والتقبيح والايجاب والحظر ، فساقط عنا النظر فى حجته واجابة دعوته ؛ إذ قد غنينا بما فى العقل عنه ، والارسال على هذا الوجه خطأ . وإن كان بخلاف ما فى العقل من التحسين والتقبيح والاطلاق والحظر فحينئذ يسقط عنا الاقرار بنبوته [1] » . وسيراً فى هذا الطريق العقلى المزعوم يرى ابن الراوندى أن بعض تعاليم الدين منافٍ لمبادئ العقل ، كالصلاة والغسل والطواف ورمى الحجارة والسعى بين الصفا والمروة اللذين هما حجران لا ينفعان ولا يضران . على أنهما لا يختلفان عن أبى قبيس وحراء فى شىء ، فلم امتازا على غيرهما ؟ وزيادة على هذا أليس الطواف بالكعبة كالطواف بغيرها من البيوت [2] ؟ والمعجزات أخيراً غير مقبولة فى جملتها ولا فى تفاصيلها ؛ ومن الجائز أن يكون رواتها ، وهم شرذمة قليلة ، قد تواطأوا على الكذب فيها . فمن ذا الذى يسلم أن الحصى يسبح أو أن الذئب يتكلم [3] ؛ ومن هم هؤلاء الملائكة الذين أنزلهم الله يوم بدر لنصرة نبيه ؟ يظهر أنهم كانوا مفلولى الشوكة قليلى البطش ، فانهم على كثرتهم واجتماع أيديهم وأيدى المسلمين معهم لم يقتلوا أكثر من سبعين رجلاً . وأين كانت الملائكة يوم أحد حين توارى النبى صلى الله عليه وسلم بين القتلى ولم ينصره أحد [4] ؟ وبلاغة القرآن على تسليمها ليست بالأمر الخارق للعادة ، فانه لا يمتنع أن تكون قبيلة من العرب أفصح من القبائل كلها ، ويكون فى هذه القبيلة طائفة أفصح من البقية ، ويكون فى هذه الطائفة واحد هو أفصحها . وهب أن محمداً صلى الله عليه وسلم غالب العرب فى فصاحتهم وغلبهم ، فما حكمه على العجم الذين لا يعرفون هذا اللسان وما حجته عليهم [5] ؟

لسنا فى حاجة مطلقاً لأن نرد على هذه الشبه الواهية والدعاوى الباطلة ، وسيدرك القارىء بنفسه ما فيها من تضليل ومغالطة . ولا نظننا فى حاجة كذلك إلى سرد الدفاع المجيد الذى دبجه يراع الاسماعيلية ضدها ، وفى مقدور كل باحث أن يرد عليها بآرائه الخاصة وأفكاره المستقلة ؛ وكل ما نريد أن نلاحظه هو أن ابن الراوندى يردد نغمة ألفناها لدى المعتزلة من قبل . فهو ينادى بالحسن والقبح العقليين ، ويذكرنا بذلك السؤال الذى وضعته مدرسة المعتزلة لأول مرة وهو : هل الايمان واجب بالشرع أو بالعقل ؟ بيد أن المعتزلة المخلصين لم يستخدموا العقل هذا الاستخدام السيء ، وبذلوا جهدهم فى أن يوفقوا بينه وبين الدين ، وأن يردوا على شبه الزنادقة والملحدين بكل ما أوتوا من حجة بينة وبرهان قاطع . ومسألة العقل والنقل هى عقدة العقد ومشكلة المشاكل فى ذلك العهد ! وسنعرف فيما يلى كيف استطاع الباحثون الآخرون حلها

(يتبع)

ابراهيم مدكور

(١) Idid. 90 (٢) Ibid. 99. (٣) Ibid. 101
(٤) Ibid. 105 — 106 (٥) Ibid., 102

لجنة التأليف والترجمة والنشر

ضحى الإسلام

الجزء الثالث

للأستاذ

أحمد أمين

يبحث فى عقائد الفرق الدينية فى العصر العباسى الأول من معتزلة وشيعة ومرجئة وخوارج ، كما يبحث فى التاريخ السياسى لكل فرقة وفى أدبها

يقع فى نحو ٤٠٠ صفحة من القطع الكبير وثمنه عشرون قرشاً عدا أجرة البريد . وسيظهر يوم ١٠ نوفمبر سنة ١٩٣٦

ويطلب من لجنة التأليف ومن المكاتب الشهيرة